مرجعيات الخطاب النقدي الجزائري الحديث. محمد بن أبي شنب أنموذجا.
أ. د. الوكّال زرارقة، المركز الجامعي شريف بوشوشة أفلو. الجزائر

مقدمة:

أجمع كثير من الدارسين والمهتمين بمسار النقد الأدبي في الجزائر أنّ حركة النقد الأدبي لم تكن معالمها واضحة في فترة العشرينيات من القرن العشرين، إلى جانب أنّ بعضهم تحفظ من وجودها ورأى بأنّ طريق النقد الأدبي في الجزائر خلال هذه الفترة كان ملتويا متشعبا لم يتح له أن يعرف شيئا من الاستقامة طوال ذلك العهد. وقد وجدنا في إطار بحثنا في مجلة "الشهاب" (1925م. 1939م) للشيخ عبد الحميد بن باديس مقالا قصيرا لـ" محمد السعيد الزاهري " بعنوان " النقد الأدبي " يستفز فيه الكتاب الجزائريين بأن يستلوا أقلامهم من أغمادها ويدخلوا وطيس معركة النقد واضعا أمامهم قصيدة شعرية من نظمه لتكون مادتهم الخام في ذلك، وهذا ما جعلنا نكاد نجزم مع كثير من الدارسين إلى أنّ حركة النقد الأدبي في الجزائر كانت ضعيفة فاترة. لكنني بعد قراءتنا التحليلية لمقالات الشاعر حمود رمضان والباحث محمد "ابن شنب " التي نشرت في عشرينيات القرن الماضي في مجلة " الشهاب"، اكتشفنا أن هذه المقالات تبرز بشكل جلي حقيقة الانتفاضة النقدية في الجزائر وتشخص معالمها، وتحدد أهدافها، وتزيح الضبابية عن واقعها رغم قلتها. فهي تحمل مضمونا نقديا متقدما، وتبرز الاتجاه التجديدي الذي بدأ يسري في جسد الحركة الأدبية والنقدية العربية التي بقيت لفترات طويلة محافظة على أصولها وقواعدها، ويؤسس لمرجعية نقدية جزائرية بدأت تظهر ثمارها مع تنامي الحركة الأدبية التي ساهمت فيها الحركة الإصلاحية بشكل واسع وواضح. ومقال " ابن خاتمة " لابن شنب كان موضوع تدخل صاحبه في مؤتمر المستشرقين السابع عشر في مدينة أكسفورد بانجلترا يبرز، رؤى نقدية

تنم عن الثقافة الأدبية لصاحبها، وتوضح مفهومه التجديدي لحقيقة الشعر وماهيته مسايرا في ذلك الحراك النقدي العربي التجديدي في الوطن العربي في فترة العشرينيات وما بعدها المتأثر بالحركة النقدية العالمية.

واقع النقد الأدبي الجزائري في عشرينيات القرن العشرين:

إن المتتبع لواقع النقد الأدبي الجزائري في العصر الحديث يجد أن بداية نشاطه بدأت بعد عشرينيات القرن العشرين متزامنة مع حركة النهضة الأدبية التي بدأت الحياة تسري في عروقها بعد ركود لازمها لعقود خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بسبب الاحتلال الفرنسي للجزائر الذي عمل منذ احتلاله الاستيطاني على تكريس سياسة قمعية ضد الشعب الجزائري، والتي هدفت إلى تفقيره وتجهيله وتجنيسه وطمس معالم هويته " فكيف يكون هناك إبداع أدبي راق في مثل هذه الظروف المأساوية، فقد كان الفقر مدقعا، والبؤس متفشيا، والظلم قائما، والاضطهاد طاحنا، والاستبداد مخيما، فلم يكن منتظرا في وطن تنعدم فيه أبسط الحقوق المدنية والحريات الشخصية، أن يظهر فيه إبداع جميل، ولا أدب عظيم".([1]) وشغل الناس عن الأدب والشعر ولم يعد من همهم التعبير الجميل والغزل المليح، والوصف الرائع، لأن ذلك لن يغنيهم عن النار التي يتلظون بها فتيلا، ولن يقف بينهم وبين الغاصبين حائلا، بل إنهم لم يجدوا الوقت الذي يستمتعون فيه بمثل هذا الأدب الذي كان يخاطب العاطفة بالغزل والخمر والرياض، ويخاطب العقل بالحكمة والزهد والفلسفة([2])ونتيجة لهذه الظروف الصعبة شهدت الحركة الأدبية تباطؤا، فتشتت الجهود العقلية المنتجة، وتشرد الأدباء والشعراء الوطنيون فمنهم من سمحت له الظروف بالهجرة إلى بعض البلاد العربية في المشرق والمغرب والاستقرار بها طلبا للعلم والأدب، ومنهم من اندمج في حركة المقاومة التي أعلنها الشعب فترة طويلة ضد الاستعمار، وفي هذه الفترة

[1]. عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر ج1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003م، ص.43.

[2]. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، لبنان، ط2 ،1977م، ص.21.

فإن الأدب كان بعيدا في أن يدخل معركة سياسية أو أن يجسم روحا قومية، أو أن يحفز إلى مستقبل وطني فيه عزة وكرامة وفيه حرية واستقلال.[1]

وبعد هذه المرحلة العصيبة في تاريخ الشعب الجزائري والتي انعكست سلبا على مناحي حياته ومنها الحياة الأدبية والفنية والثقافية بدأت الحياة تدب شيئا فشيئا في جسم الأدب الجزائري بسبب عدة مؤثرات منها ما هو عربي، وما هو وطني، وما هو غربي، فقد كان الشرق العربي مؤثرا حيويا في اتجاه الأدب الجزائري كما كان مؤثرا حيويا في الاتجاهات السياسية والإصلاحية[2]أما المؤثر الوطني الذي حرك الحركة الأدبية فيتمثل في النشاط السياسي والإصلاحي الذي شهدته الجزائر خاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ومن ثم يمكن القول بأن الحركة الوطنية قد أثرت في الأدب في جميع مراحلها، غير أن هذا التأثير اتخذ شكل التأييد المطلق وأغنى الأدب بتجارب سياسية في بعض الأحيان، واتخذ مرة أخرى شكل المعارضة والدعوة إلى مفاهيم جديدة تحقق للشعب حياة أكمل وأوفر كرامة من حياته في ظل الاحتلال.[3]

أما المؤثر الغربي فإن التأثر به كان بطيئا متثاقلا ولم تستطع فرنسا من وراء سياسة الفرنسة والتجنيس أن تصل إلى أهدافها إلا مع القليل من أبناء الجزائر الذين اندفعوا يحملون هذا الشعار التقدمي مع الاشتراكية الاستعمارية تارة ومع العقلية العلمية ومبادئ الثورة الفرنسية تارة أخرى. [4]

وكان لهذه النهضة وهذا الانتعاش الذي عرفه الأدب العربي انعكاس على الحركة النقدية في الجزائر التي تميزت محاولاتها الأولى مع مستوى الخطاب الأدبي في تلك الفترة، فبدأ النقد متواضعا ومحدودا من خلال الآراء التي كان يدلي بها بعض الأدباء في دروسهم وندواتهم وفي بعض الدوريات والتي كانوا يدعون فيها إلى " نبذ الجديد والتشكك في قيمته

[1]. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص 24.

[2]. المرجع نفسه، ص 24.

[3]. المرجع نفسه، ص 26.

[4]. المرجع نفسه، ص 23.

الفنية والموضوعية، وإلى الأخذ بالقديم لا باعتباره نماذج خالدة ولكن باعتباره تراثا قوميا،"([1])

وقد تميز الخطاب النقدي الجزائري في بداياته الأولى بأنه " لا يقوم على أسس نقدية ثابتة أو أصول تعارف عليه النقاد العرب أو النقاد المعاصرون، فهو بذلك أقرب إلى خواطر أملتها ظروف معينة، ومناسبات عامة."([2]) كما أن المحاولات الأولى في الكتابات النقدية "اتسمت بالتركيز على الجوانب اللغوية والموسيقية من وزن وقافية وكذلك بالجوانب البلاغية والاهتمام بالمعنى الجزئي في النص الشعري..

ومن أبرز الأسماء التي عرفتها الإرهاصات الأولى للكتابة النقدية في الأدب الجزائري الشاعر حمود رمضان (1906م . 1929م) الذي نشر مقالات أدبية ونقدية في مجلة " **الشهاب**" منها مقال بعنوان "حقيقة الشعر وفوائده"، أبرز من خلاله نظرته التجديدية للشعر، كاشفا عن ماهية الشعر ووظيفته، ومقال ثان بعنوان "الخيال الشعري عند العرب" ومن أبرز ما جاء في مقاله الأول من آراء ([3])

1 . الشعر تعبير جميل عن الشعور الصادق " فكما أنّ المصور لا يقدر أن يتقن صورته إلاّ إذا تزود بجانب وافرٍ من الشعور و كان الشكل أو المنظر الذي يريده أمامه يراه بعيني رأسه، فكذلك الشاعر لا طاقة له على امتلاك العقول و الأخذ بأزمة النفوس إلاّ إذا أجاد تصوير تلك الوقائع الهائلة التي تقوم في ميدان صدره عندما يريد أن يعرب للسامع عن خاطر من خواطره الخاصة أو العامة كانت لا مجرد تنميقٍ وتزويرٍ و تكلفٍ مشينٍ و تعملٍ باردٍ و كذبٍ فادحٍ فإنّ هذا ممّا ينقص من قيمة الشعر والشعراء في نظر الأمّة و ممّا يزهدها في سماع نبات أفكار الفحول منهم"([4])

---

[1] . أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، ص 85.

[2] . يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر، من اللانسونية إلى الألنسنية ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الرغاية ، الجزائر ، 2002م ، ص 138.

[3] . ينظر الوكال زرارقة ، الأدب الإصلاحي في الجزائر ومقاومة سياسة الاستعمار ، مطبعة بن سالم ، الأغواط ، 2018 ، ص 172.

[4] . رمضان حمود، حقيقة الشعر وفوائده، في الشهاب، ع 82، م 2، ص. 789.

2 . الشعر ليس بصناعة وإنما هو إلهامٌ وجداني ووحي الضمير، وهو تيار كهربائي مركزه الروح وخيال لطيف تقذفه النفس لا دخل للوزن وللقافية في ماهيته " وغاية أمرهما إنّهما تحسينات لفظية اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة ولا ملوحة وإنّما حفظًا وصيانة من التلاشي والسيلان"([1])

3 . مناصرته للثورة الشعرية التي حدثت في الشعر الأندلسي وسماها بالمباركة دعا إلى إحداث ثورة في الشعر الحديث ووجوب تجديده ليتماشى مضمونه مع واقع الأمّة ولا يكون الشكل عائقًا في سبيل ذلك، وأن تكون أغراض الشعر التقليدية في خدمة قضية الأمّة الأساسية " ومن تعلقت نفسه بالمدح فليمدح الأخلاق الحميدة وينشرها بين قومه ويتشبث بالفضيلة ومن يميل إلى الهجاء فليهج العوائد الفاسدة ويذم الرذيلة بأنواعها ومن يحب التغزل فليتغزل في وطنه المقدس الذي يعيش فيه ويأكل خيراته، فبذلك تسعد البلاد وترتقي"([2])

إن الجديد الذي جاء به هذا الشاعر هو رفع الأدران عن الشعر بجمال خياله ورقة أسلوبه وفخامة ألفاظه وقوة مادته واتساع دائرة معارفه ومعلوماته، ومعالجته لقضايا الأمّة وهمومها وما تعيشه في واقعها ودعوته لكلّ شاعر إذا أراد أن يخدم أمّته بشعره:

1. أن لا يولع بغريب اللفظ فيسهل فهمه على القارئ في عصر الوقت فيه من ذهب "لا يسمى الشاعر شاعرًا عندي إلاّ إذا خاطب النّاس باللّغة التي يفهمونها بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة الباسمة لا أن يكلمونا في القرن العشرين بلغة "**إمرئ القيس**" و "**طرفة**" و "المهلهل" الجاهليين([3]).
2. أن يتجاوز الحدود الباستيلية التي أوقفت مسيرة الأدب العربي " فيا أيها الأدباء الأحداث انبذوا عنكم التكلف و التنطع في اللّغة و افرغوا المعنى الجميل في اللفظ الجميل و اخضعوا لصوت الضمير، و صفوا نفوسكم من الانتقام قبل الانتقاد و لا تقيدوا كتابتكم بطريق أحدٍ مهما كان شأنه و قدره في الأدب و مهما كان بيانه

[1] .رمضان حمود، حقيقة الشعر وفوائده، في الشهاب، ع 82، م 2، ص. 790-791.

[2] . المرجع نفسه ص. 790.

[3] . المرجع نفسه ، ص. 159.

الساحر ولكن أحب أن تدور رحى اقلامكم حول محورٍ واحدٍ و تتسابق خيل أفكاركم نحو غاية واحدةٍ و هي سعادة الوطن بأي طريقٍ كان"([1]).

3. أن يجدد في الشعر و يخالف من سبقه من الشعراء و الأدباء فيبلغ به منزلة الكمال كما فعل الغربيون.
4. أن يطبع الشعر بطابع العصرنة للتميز بين قديمه و حديثه.
5. أن يوجه الشعر لخدمة الأمّة و قضاياها المصيرية و يخاطب غالبيتها باللّغة التي تفهما "الشعر روح الشعوب فإذا نصحوها سارت و تقدمت و إذا خانوها فالسقوط والاضمحلال حظها" ([2])، فأمل الأمّة كما يراه "حمود رمضان" معلق على شعرائها الذين من الواجب عليهم أن يأخذوا بيد من هم دونهم من أجل أن يعم النهوض و التقدم سائر أبناء الأمّة " لأنّ الشعر الذي لا يحرك نفوس العامّة و لا يذكّرها في واجبها المقدس و وطنها المفدى فهو خيانة كبرى و خنجرٌ مسمم في قلب المجتمع الشريف" ([3])

فهذه وقفة عند ثورة هذا الشاعر الأديب الشاب الذي حاول من خلال مقالاته أن يصف العلاج للشعر في عصره حتى يشفى من أسقامه و ينهض معافًى لخدمة قضايا أمّته ومسايرة تطورات عصره. و نلمح من خلال المقالات الأدبية لهذا الكاتب أنّه متأثر بدعاة التجديد في الأدب العالمي خاصة دعاة المذهب الرومنسي. ولحمود رمضان وقفات أخرى في **"الشهاب"** تنصب كلها في إحداث ثورة تغييرية في الأدب العربي، فهو صاحب الدعوة الجريئة والصريحة في عهده إلى الاتصال بالغرب في وقت كان النقد والأدب في المغرب العربي عبارة عن اجترار مملول للقديم، وفي هذا الوقت المبكر فهم حمود أن السبيل الوحيد لتحرير الأدب من قيود الماضي، ومما يطلق عليه، الجمود والتقليد الأعمى هو الاتصال بالآداب

[1]. رمضان حمود، حقيقة الشعر وفوائده، في الشهاب، ع 82، م 2،،ص. 160.

[2]. المرجع نفسه.،ص. 159.

[3]. المرجع نفسه.،ص. 159.

الأجنبية والاستفادة منها عن طريق الترجمة والنقل([1]) وقد نشرت له الشهاب مقالا في هذا الموضوع بعنوان "الترجمة وتأثيرها في الأدب" في جزئين رأى من خلاله وجوب إحداث انقلاب وتغيير في مملكة الأدب العربي، وأن من سبل ذلك الترجمة الصحيحة أو التعريب لما يمثله هذا الجسر من أهمية في احتكاك الآداب والثقافات وتواصل المجتمعات ومسايرة كل جديد" الترجمة من أركان الأدب التي لا يستهان بها، وإحدى الطرق التي يسلكها الأديب المتفنن نحو مدينة البيان وسحر الكلام فهي الواسطة بين الأمم قديما وحديثا لا غنى لأحد عنها ومن فوائدها التأثير على الأدب فإنها تقع عليه وقوع ندى الصباح على الوردة الباسمة..."([2])ولم يكن رمضان حمود في دعوته هذه مفتتنا بحضارة الغرب أو مأخوذا بها وبآدابها، وإنما كان مؤمنا بجدوى الاحتكاك بالآداب والفنون العالمية.([3]).

يعدُّ حمود رمضان أنموذجا للإرهاصات النقدية في أدبنا الجزائري الحديث مع بعض الأقلام القليلة الأخرى والدين تميزت آراؤهم النقدية في غالبها أنها " إصلاحية التزامية ، نظرا للأحوال التي كان يعيشها المجتمع الجزائري آنذاك . إلاَّ أنها كانت تتحسس دوما مظاهر الجمال في أدبنا أو أدب غيرنا ، كما حاولوا معالجة المضامين المتعلقة بالحياة الاجتماعية والسياسية ، أو نقد الحياة نفسها وما فيها من زيف أو استبداد أو لا التزام ."([4]) وإلى جانب حمود رمضان برزت شخصية محمد بن أبي شنب (1869-1929)الذي برز قلمه النقدي في فترة العشرينيات من القرن العشرين ، وهو يعد من الشخصيات الرائدة في تاريخ الثقافة الجزائرية ، فقد ساهم مساهمة كبيرة في إثراء الرصيد الثقافي الجزائري والمغاربي والعربي والعالمي من خلال دراساته في التراث العربي الأدبي منه واللغوي ،والمقارنة بين هذا الأخير وتراث الآخر ، وقد نشرت له مجلة " الشهاب " في عدديها المائة والحادي والسبعين

[1]. محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ط2 ، 1984م ، ص.83.

[2]. حمود رمضان، الترجمة وتأثيرها في الأدب، في الشهاب، ع116،م3،ص.319.

3. محمد مصايف، مرجع مذكور سابقا.،ص.86

[4]. قديد جمال ، تاريخية النقد الجزائري الحديث ، مجلة آفاق العلوم ، جامعة الجلفة العدد الخامس 2016م ، ص 121.

والمائة والثاني والسبعين لشهر نوفمبر 1928م ، وعددها الأول والثاني لشهري فيفري ومارس 1929م مقالات تحت العناوين الآتية :

- مؤتمر المستشرقين السابع عشر المنعقد في مدينة أكسفورد ببلاد الإنكليز.
- ابن خاتمة شاعر عربي أندلسي من شعراء القرن الثامن للهجرة.
- الجزائر.

ومن خلال اطلاعنا على هذه الأعمال العلمية والأدبية ودراستها استطعنا أن نكتشف بعض جوانب شخصية ابن أبي شنب العلمية والفكرية،" فهي تظهر أنّه كان ناقدا فاحصا، عارفا بفن الشعر وخصائصه الفنية، متتبعا لحركيته عبر التاريخ، ذواقة له ، كما أنّها تظهر ولعه بالتاريخ العربي والإنساني ، قارئا لأحداثه ومتدبرا فيها ، ومتتبعا لها ، ومدققا في تسجيل الأحداث ومحققا في أسانيدها ، ساعيا من وراء ذلك إلى إبراز فضل التراث العربي وآلائه على الثقافة الإنسانية.

وأنت تقرأ لمحمد ابن أبي شنب تجد نفسك في مكتبة تعددت تخصصاتها ، وتنوّعت معارفها ، وتلونت معلوماتها ، وتيسّر عليك الولوج إليها ، والبحث في كنوزها ومكنوناتها . ومن خلال اطلاعك على كتاباته تجده واسع الاطّلاع خصب الثقافة ، غزير المعرفة ، منهجي الدراسة والتحليل ، يعرض للآراء التي لها صلة بالموضوع الذي يبحث فيه ثمّ يدلي برأيه مشفعا إياه بالأدلة المناسبة قصد الإقناع بأسلوب قوي ، ولغة واضحة ، ولسان مبين ، مثبتا شخصيته العلمية والأدبية ، فهو بحق موسوعة من موسعات عصره ، يحق للأرض التي أنجبته أن تفتخر به وبعلمه."([1])

الرؤى النقدية الجديدة في كتابات محمد بن أبي شنب :

مقال " ابن خاتمة " لابن شنب أنموذج للأعمال النقدية في فترة العشرينيات من القرن العشرين والتي تدل على مستوى البدايات الأولى للعمل النقدي في الجزائر ، وهو في حقيقته خطاب تقدم به لمؤتمر المستشرقين في أكسفورد في صيف 1828م نشرته مجلة " الشهاب"

[1] .. الوكال زرارقة ، محمد بن أبي شنب الناقد الباحث المؤرخ ، قراءة في أعماله ، مجلة الآداب واللغات ، جامعة الأغواط ، العدد الثامن 2011 ، ص 95.

في ثلاثة أجزاء الجزء الأول في المجلد الخامس الجزء الأول شهر رمضان 1337ه الموافق لشهر فيفري 1929م السنة الخامسة والجزء الثاني في المجلد الخامس الجزء الثاني شهر شوال 1337ه الموافق لشهر مارس 1929م والجزء الثالث في المجلد الخامس الجزء الثالث شهرذو القعدة 1337ه الموافق لشهر أفريل 1929م وينطلق في خطابه بإعطاء نظرة عامة حول الأدب الأندلسي الذي يرى فيه الثورة التجديدية الأنوذجية في الشعر العربي ، ،فهو يرى بأنه يتميز بظواهر فنية تميزه عن الشعر العربي في المشرق ويستند في ذلك على ما قاله أبو الطيب المتنبي في حديثه عن الشعر الأندلسي " أهل الأندلس أكثر من غيرهم مجبولون على قريحة خصوصية في الشعر."([1])

ويستهل خطابه بالإشارة إلى المصادر الشعرية الأندلسية المتوفرة في المكتبة البحثية والتي يرى في توفرها عاملا مهما في إصدار الأحكام الموضوعية حول طبيعة الشعر في بلاد الأندلس، وإعطاء صورة حقيقية عنه. " لا نعرف من الآداب العربية ولاسيّما الشعر في بلاد الأندلس إلاّ بواسطة نفح الطيب للمقري وقلائد العقيان والمطمح الانفس كلاهما للفتح بن حاقان وطبعة ديوان ابن خفاجة الناقصة وطبعة ديوان ابن سهل التي تزيد خللا وتصحيفا. ومن المعلوم أن الشعر العربي على وجه الإطلاق ولا سيما شعر أهل الأندلس لا تبقى له قوته الذاتية إلاّ إذا قرئ في متونه الأصلية."([2])

وفي ذات السياق يقول :" وهل هي قليلة كما أثبته بونس إي بويقس هذه المؤلفات المملوءة رقة ولطفا الجديرة بتحريك قلب الإنسان في كل زمان ومكان نعم لا يمكن الجواب عن هذا السؤال إلا إذا كان عندنا عدد كبير من الدواوين."([3])

وقد توصّل حول ما استطاع أن يقرأه في المجاميع الأدبية من قطع شعرية أندلسية متباينة إلى أحكام نقدية يمكننا إجمالها في النقاط التالية:

1. اهتمام شعراء الأندلس بالصورة أكثر من المعنى.
2. الاشتغال بالتأنق في اللفظ أكثر من الاشتغال بتصحيح القول وتحقيقه.

---

1 .ابن شنب ، ابن خاتمة ، في الشهاب ، الجزء الأول ، المجلد الخامس ، فيفري 1929 ، ص 7

1 . المرجع نفسه، ص 7.

2 . المرجع نفسه، ص 7.

3. الاعتماد على بعض النكت التافهة في نسق الألفاظ.
4. البراعة اللغوية من جهة إتقان السبك في العبارة وسعة اللغة بما يخدم الشكل لا المضمون.

" وإذا ما أردنا الحكم في شعر العرب في أرض الأندلس حسب القطع المتباينة في المجاميع الأدبية نرى أنّ الشعراء يهتمون بالصورة أكثر ممّا يهتمون بالمعنى ويشتغلون بالتّأنق في اللفظ أكثر ممّا يشتغلون بتصحيح القول وتحقيقه أو تحقيقه ويتطلبون بعض النكت التافهة في نسق الألفاظ ولمّا كانت عندهم معرفة كبيرة بدقائق اللغة العربية يجب اعتبار مؤلفاتهم من جهة إتقان السبك في العبارة وغاية سعة اللغة أكثر ممّا يجب اعتبارها من جهة المضمون."([1]) وزيادة على هذه الأحكام والآراء النقدية يرى أنّ الشعر الذي يهتم بالشكل من جمال اللغة وحسن الصورة وجمال الإيقاع لا يمكنه تحريك القلوب ودغدغتها مثلما يدغدغ الآذان ويطربها وهذا ما يراه منطبقا على جل الشعر الأندلسي " فهذه المحسنات الصناعية التي تدغدغ الأذان بلطافة ولكن لا تحرك القلب لا يذوقها ولا يعتبرها إلاّ العرب وحدهم."([2])

ومن خلال هذا الحكم الناتج عن تشخيص "ابن شنب للشعر الأنذلسي يتبين لنا مفهومه لماهية الشعر ووظيفته، فالشعر الحقيقي هو الشعر الذي يؤثر في القلوب ويحركها ويشرك المتلقي فيما يعيشه الشاعر ويشعر به ، فلا فائدة للشعر مهما وصل من قمة في الشكل من موسيقى ولغة ومن نجاح في إصابة اللفظ المطابق للمعنى المقصود وحسن الصورة إذا لم تتحقق به إنسانية الشعر." وزيادة على ذلك أن المجال الشعري نفسه والصناعة العروضية واللغوية والنجاح في إصابة اللفظ المطابق للمعنى المقصود وحسن الصورة كل ذلك يدعو إلى التعجب."([3])

وما يؤكد مفهوم الشعر وحقيقته عند " ابن شنب" دعوته من خلال تشخيصه لشعر الأندلسيين إلى تجاوز كثير من التقاليد الشعرية القديمة والعمل على تحديثه ووصف

3. ابن شنب ، ابن خاتمة ، في الشهاب ، الجزء الأول ، المجلد الخامس ، فيفري ، ص 8.
4. المرجع نفسه 1929 ، ص 8.
[3]. المرجع نفسه، ص 8

بعضها بالبالية ليتلاءم الشعر مع زمانه ويتأقلم مع واقعه الذي يجسده" هذا وقد زاد اهتمام أكثر الشعراء باستعمال الاستعارات والتشبيهات البالية منذ أزمان والمقابلات الغريبة والمبالغات والغلو." ([1])وهنا نرى " ابن شنب " يؤكد حقيقة ماهية الشعر ووظيفته في أن يستمد اللغة والصورة من مصادر موضوعية وواقعية. فالشعر في رأيه ما كان صادقا مؤثرا وإنسانيا متجاوزا كل الحدود الوطنية والقومية ، نابعا من بيئته وواقعه غير مجتر لصور الأقدمين ومحسناتهم ففي ذلك خروج عن طبيعة الشعر وإبقائه حبيس ماضيه ، معزولا عن حاضره.

ثم ينتقل بنا " ابن شنب" إلى العملية التغييرية التي أحدثها شعراء الأندلس في أشعارهم مخالفين في ذلك معمارية الشعر العربي في شكله ومضمونه ، ولكنه لا يرى في هذا التحول جديدا مع ما يتناسب وحقيقة الشعر إلا ما يتصل بالشكل فقط " ولما كان شعراء الأندلس في ضيق من جهة صورة القصيدة والوزن عند عرب الجاهلية أرادوا أن يعطوا القصيدة صورة ووزنا يناسبان ميلهم الشديد للغناء ففي المدن الأندلسية أخترعوا الموشح والزجل الأول للخاصة والثاني للعامة ومن هذين الفنين تكونت القصيدة المعروفة عند الافرنج برومانس التي كانت لها أهمية كبيرة في آداب نصارى الأندلس خصوصا فغيروا صورة القصيدة وترتيب أبياتها ووزنها ولم يكتفوا بتجديد توالي الأسباب والأوتاد بل أكثروا من المحسنات البديعية اللفظية ولا سيما استعمال بعض الألفاظ الاصطلاحية من الفقه وغيره فاكسبوا البيت غناء ونغمة زائدين على ما هو المألوف في أشعار العرب."([2])

إن العملية التجديدية في الشعر الأندلسي كانت استجابة لداعي الغناء فكان الموشح والزجل لأن الشعر العربي العمودي لم يستجب لهذا الداعي لا في شكله ولا في صورته ، ومن ثمة فإن هذا التحول مس الشعر في شكله لا في مضمونه ، وإن كان لهذا التحول تأثير على

1. ابن شنب ، ابن خاتمة ، في الشهاب ، ص 8

3. المرجع نفسه، ص 8

بعض الآداب الأجنبية حيث استطاعت أن تؤثر في الشعر الأوربي الذي عرف بفضل هذا التأثر قصيدة البرومانس.

. ومن ثمّة فإنّ هذه القراءة النقدية التي نراها متقدمة في حركة النقد العربي الحديث في الجزائر تدخل في إطار رؤية التجديد في الشعر العربي الحديث التي مثلتها جماعة الديوان وأبولو في المشرق والرابطة القلمية في المهجر ودعوات أبو القاسم الشابي وحمود رمضان في المغرب العربي ، والتي رأت وجوب تعبير الشعر عن التجارب الصادقة وتجاوز شعر الأغراض والمناسبات والاهتمام بالمعاني والمضامين دون الشكل ، وهي ترى في الشعر تعبيرا جميلا عن مشاعر صادقة وتجربة حقيقية عايشها الشاعر .

ومن خلال ما سبق عرضه واستنتاجه فإنّ ابن شنب يدعوا إلى أن يوجّه الشعر إلى القلوب فيحرك جمودها ويحي مواتها ويثير مشاعرها ، موازاة مع قيامه بإمتاع الآذان بإيقاعاته الجميلة وموسيقاه العذبة ، وصوره المدهشة ، وأن يساير واقعه وبيئته بتجسيد الحاضر والتحرر من قيود الماضي.

ثم ينتقل بنا ابن شنب إلى ترجمة للشاعر " ابن خاتمة" فيشير إلى نسبه ومكان مولده وسنة ميلاده ومصدر ترجمته وهو كتاب الإحاطة للسان الدين بن الخطيب وتاريخ وفاته متعاملا مع المعلومات المستقاة من مصادر عدة بمنهجية المحقق ، ثم يحدثنا عن عمله الكتابة للولاة والإقراء في الجامع الكبير بالمرية بقية حياته ، كما يحدثنا عن رحلاته داخل بلاد الأندلس وعن أسماء مشايخه الذين أخذ عنهم العلم والأدب ، وينهي خطابه في جزئه الأول بتعريف ابن الخطيب لابن خاتمة " هذا الرجل صدر يشار إليه طالب متفنن مشارك قوي الإدراك سديد النظر قوي الذهن موفر الأدوات كثير الاجتهاد معين الطبع بارع الخط ممتع المجالسة حسن الخلق جميل المعاشرة حسنة من حسنات الأندلس وطبقة في النظم والنثر بعيد المرقى في درجة الاجتهاد وأخذه بطرق الإحسان مشكور السيرة محمود الطريقة الخ" ([1]) وفي القسم الثاني من خطابه يتناول تآليفه ويبدأها بكتابه مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية ويعقب عليه بأنه كتاب في تاريخ بلده ويشير إلى أن الكتاب يعد مصدرا من

[1] ابن شنب، ابن خاتمة، في الشهاب، الجزء الأول، المجلد الخامس، فيفري 1929، ص9.

المصادر التي اعتمدها لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة واعتمده المقري في نفح الطيب.

أما الكتاب الثاني فهو تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد ويعقب عليه بأنه جزء مشتمل على عشر مسائل في الوباء الذي أباد في سنتي 749 هـ و750هـ عدة مدن في آسيا وافريقية وأوربا ومنها بلدته المرية، ويشير إلى وجود نسختين من الكتاب في مكتبة الأسكوريال ومكتبة برلين الملكية ويذكر الرقم الذي تحمله كل نسخة.

والكتاب الثالث رائق التحلية في فائق التورية ويشير إلى وجود نسخة منه في مكتبة الأسكوريال ويذكر الرقم الذي تحمله النسخة.

الكتاب الرابع الحاق العقل بالحس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس.

أما الكتاب الرابع فهو ديوانه ويذكر تفاصيل عنه " ديوان شعره توجد منه نسخة بخط يد أبي خاتمة نفسه بتاريخ أخريات سنة 738هـ في الأسكوريال عدد 481 مشتملة على 60 ورقة بخط مغربي دقيق وفي كل صفحة 16 سطرا وتوجد أيضا نسخة ثانية في مكتبة العلامة المغربي سيدي محمد عبد الحي الكتاني بمدينة فاس فأعارها لي وله مني مزيد الشكر وهذه النسخة فيها ديوان ابن هانئ الأندلسي وديوان ابن خاتمة أما ديوان ابن خاتمة فهو مشتمل على 57 ورقة في كل صفحة 17 سطرا وهي مجدولة بحبر أحمر وقياسها 195 في 135 وخطها مغربي عادي والنقط كثيرا ما نسيه الناسخ مثل الذال المعجم يهمل نقطه غالبا والظاء المشالة يبدلها ضادا والثاء المثلثة تاء مثناة والألف المقصورة ألفا والنسخة مؤرخة بيوم الأحد 25 ربيع الثاني سنة 994هـ الموافق ل 14 أبريل 1586_ أي نحو مائتي سنة بعد وفاة ابن خاتمة وفيها أيضا بعض البياض وأبيات لا تقرأ أو لا تفهم ."([1])

ثم ينتقل بنا صاحب الخطاب إلى الحديث عن محتويات الديوان " والديوان مشتمل على أربعة أقسام وخاتمة، القسم الأول في المدح والثناء والثاني في النسيب والغزل والثالث في الملح والفكاهات والرابع في الوصايا والحكم والخاتمة في نبذة من التوشيح،"([2])

1. ابن شنب ، ابن خاتمة ، في الشهاب ، الجزء الثاني ، المجلد الخامس ، ص 55.
2. المرجع نفسه ص 55.56.

وينتقل بنا بعد ذلك إلى ذكر نماذج شعرية لكل قسم معقبا في كل استهلال كقوله " أما القسم الأول فتوجد به نسمة تهذيبية أو وعظية تدل على أن قصائد القسم نظمت وصاحبها قد طعن في السن واحتنكته التجارب " ([1]) ويذكر بعدها نبذة من شعره في هذا الغرض ، ويعقب بعد ذكر النموذج أن القسم الأول فيه قصيدتان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وثالثة مشابهة لبردة البوصيري وتتكون من 28 بيتا ويشاهد فيها تخميس وتسميط ، ويمهد لنماذج القسم الثاني من الديوان بقوله :" وفي القسم الثاني ولو كان الشاعر يذكر أماكن من أرض المشرق صارت في الحقيقة نكرات ولم يبتعد عن رسم القصيدة عند شعراء الجاهلية يحس الإنسان أن تحت هذه الأسماء الأعلام الاصطلاحية قد قصد أماكن من بلاده يعرفها ويصفها حسبما يقتضيه الحال ويرى عند زيادة ذلك حب الطبيعة شديدا وغرامه بها أكيدا.([2]) ويذكر ستة مقاطع شعرية من ديوان الشاعر في وصف الطبيعة.

وفي الجزء الثالث من الخطاب يواصل ابن شنب في ذكر نماذج من شعر ابن خاتمة فيما يتصل بالفكاهات والملح ويذكر في ذلك نماذج شعرية في محاسن الفصول وفي الليل وفي الشمعة وفي غلام سابح وفي راكب دهماء وفي هجوم البعاد في زمن الإسعاد وفي ذم الحرص والحض على التفويض وفي نكاية الحاسد بالمحامد وفي التحريض على استجادة الملبس وفي ضده وفي الإغراء بالسفر وفي ذم العشق .وينهي ابن شنب ذلك بوصف هده المنتخبات الشعرية بالحسنات مستندا على قول لسان الدين بن الخطيب في حكمه على الشاعر بقوله :" وهنا انهي المنتخبات من الحسنات وقل لي أيها المطالع هل يجوز للسان الدين ابن الخطيب أن يقول في شأن هذا الأديب :" ناظم درر ، ومقلد جواهر الكلام نحور الرواة ولبات الحفاظ والآداب التي أصبحت شواردها حلم النائمين وسمر الأيقاظ ، وركن في بياض طرسها وسواد نقشها سحر الألحاظ ، رفع في قطره راية هذا الشان على وفور حلبته . وبرز في قصبة البيان على سمو هضبته. وفوق سهمه إلى نحور الإحسان فأثبت في لبته فإن أطال

[1]. ابن شنب ، ابن خاتمة ، في الشهاب ، ص 56.

[2]. المرجع نفسه، ص 56.

شأن الأبطال وأكثر المنسجم الهطال، وإن أوجز فضح وأعجز فمن نسيب يهيج به الأشواق وتضيق زفراتها الأطواق ودعابة تقلص ذيل الوقار وتزري بأكؤس العقار إلى انتحال المعارف والجنوح إلى الظل الوارف."([1])

وهنا نلاحظ أن ابن شنب في قراءته لشعر ابن خاتمة قد اعتمد على منتخبات من شعره وصفها بالحسان ورأى في الأحكام التي أصدرها ابن الخطيب شاملة جامعة حول الشاعر وشعره.

الخاتمة: ومما سبق فإننا نستنتج من القراءة النقدية لابن شنب لشعر الأندلسيين ولشعر ابن خاتمة خاصة أنّ له مفهوما تجديديا للشعر غير المفهوم التقليدي له ، وهو ينطلق في إبداء مفهومه من خلال الشعر الأندلسي الذي يعد رافدا تجديديا من روافد الشعر العربي المعاصر ، وعملا جريئا في إحداث انقلاب على مستوى القصيدة العربية التي لم يستطع شعراء المشرق أن يتعدوا على معماريتها رغم المحاولات القليلة من قبل بعض الشعراء التي لم يكتب لها البقاء والاستمرارية .إلا أن ابن شنب رغم ولوعه بالشعر الأندلسي وإعجابه به لم ير أنه وصل إلى تحقيق حقيقة الشعر وماهيته ، فالتغيير الذي حدث كان على مستوى الشكل والبناء ولم يتجاوزه إلى غيره فالشعر الحقيقي هو الذي يؤثر في القلوب ويحركها ويشرك المتلقي فيما يعيشه الشاعر ويشعر به ، ويكون داعيه التجربة لا المناسبة وهو ما ذهبت إليه المدارس الأدبية العربية التجديدية في العصر الحديث وخاصة في العقد الثاني من القرن العشرين . كما أن ابن شنب يرى في الانقلاب الذي أحدثه الشعر الأندلسي مصدر تأثير في الآداب غير العربية وهو ما يجسد عالمية الشعر وإنسانيته، وهذا ما يجب أن يكون عليه الشعر في خدمة المجتمع الخاص والعام جسر تواصل بين الحضارات والشعوب،

إن العملية النقدية لابن شنب في قراءته للأدب الأندلسي تميزت بالموضوعية في إصدار الأحكام وبالانطباعية في التشخيص وبالعلمية في التحقيق والإسناد والرواية وبذلك نرى في

[1]. ابن شنب، ابن خاتمة ، في الشهاب ، الجزء الثاني ، المجلد الخامس ، ص 109.

قراءته الجمع بين الانطباعية والعلمية، وإبداء رأيه ومفهومه للشعر من خلال القراءة والتحليل، ومن ثمة فإن هذا العمل النقدي المتقدم لهذا الباحث المحقق والقارئ الناقد يعد تأسيسا لمرجعية نقدية في ادبنا الجزائري الحديث.